الزمان والمكان في سورة يوسف

الدكتور: كمال أحمد غنيم(*)

سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء(1)، (نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر، وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور)(2). واحتوت السورة في الآيات(٤-١٠١) على السرد القصصي المتكامل لحكاية النبي يوسف عليه السلام، بما في ذلك مقدمة القصة ونهايتها. لكن السورة امتلكت مقدمة سورة ونهاية سورة أقرب إلى التعليق على القصة بتمهيد وخاتمة. ويدور هذا البحث حول بناء السرد القصصي لحكاية يوسف عليه السلام في الآيات(٤-١٠١)، ذلك أن آيات القصص القرآني بمجمله إنما تأتي متضمنّة بين الآيات الأُخر.

---

* أستاذ مشارك في الأدب والنقد، عميد شئون الطلبة- الجامعة الإسلامية - غزة
KGHONEM@GMAIL.COM

الأول، والاستباق الداخلي الذي يقع داخل المدى الزمني المرسوم للمحكي الأول دون تجاوزه، وهو أكثر استعمالاً من الخارجي، لأنه يؤدي دور الإعلان أو النبوءة؛ التي تخلق نوعًا من التشويق والترقب.

وينقسم الاسترجاع إلى ثلاثة أنواع، أولها الاسترجاع الداخلي؛ الذي يعتمد رجعات يتوقف فيها تنامي السرد صعودًا من الحاضر نحو المستقبل، ليعود إلى الوراء، على ألا يجاوز مداها حدود زمن المحكي الأول، ويحتاجه الكاتب، ليعالج إشكالية سرد الأحداث المتزامنة، وثانيها الاسترجاع الخارجي؛ الذي يطلق على الارتدادات الواقعة خارج النطاق الزمني للمحكي الأول، ويحتاجه الكاتب كلما قدّم شخصية جديدة، ليبرز طبيعة علاقتها بالشخصيات الأخرى، أو الحديث عن شخصية غابت عن الحدث فترة زمنية، أو عند الرجوع لأحداث لها تأثير في زمن المحكي الأول، وثالثها الاسترجاع المزجي المختلط؛ الذي يجمع بين الأول والثاني، فيبدأ من خارج إطار الزمن المحكي الأول ويمتد ليلتقي مع بداية المحكي الأول(٣). وقد بدأت القصة بأربعة استباقات داخلية، أسهمت في خلق التشويق والترقب منذ اللحظة الأولى، وقد بدا ذلك في رؤيا يوسف وتفسير يعقوب لها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنّي رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ، قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ

حيث امتلك القدرة على معرفة أنواع الطعام الذي يُقدم للسجناء قبل نزوله لهم، مما ملأ نفوسهم بإحسانه، فتقدموا إليه طلبا لتفسير رؤاهم، ففعل ذلك بموضوعية وأمانة دون مجاملة: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١). ولم يتبين المتلقي صدق التفسير إلا عمليًا عندما تذكر الساقي صاحبه السجين بعد أن عجز الملأ عن تفسير رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (يوسف: ٤٥) ، وذلك وفق قاعدة تقسيط الحدث، الدافعة باتجاه خلق الترقب وانتظار النتائج.

ثم جاءت رفعة يوسف تتويجا لتلك الاستباقات في نهاية المطاف والأنفاس مشدودة تراقب المصيبة تلو المصيبة، حتى كانت جميعها تقود بشكل حتمي إلى وعد الله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا..﴾ (يوسف: ١٠٠). وتكتمل بذلك استباقات زاخرة، شُحنت بها بداية القصة، وجاءت تباعا في تدرج مشوّق، محكم النسيج، فالاجتباء يستلزم تأويل الأحاديث، وتأويل الأحاديث يقود إلى الرفعة، لتكتمل بذلك دائرة الحدث القصصي، لتشكّل بناءً دائريا، لا تكاد تنتهي في محيطه العجائب والحوادث.

فساق في سبيل ذلك تخوفاته من أن يأكله الذئب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾(يوسف: ١٣) ، وقد تلقّف أبناؤه ذلك التخوف، واتخذوه مبررا لتفريطهم بيوسف: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾(يوسف: ١٧). وذلك الاستباق لم يتحقق فعلا بتفاصيله، لكنه تحقق ادعاءً مع اختلاف التفاصيل، حيث لم يحدث أكل الذئب ليوسف، لكن جاء ادعاء الإخوة لذلك. والتخلص من يوسف قد تمّ فعلا، عن طريق الجب لا الذئب، ولا شك أنه ترك أثرًا في نفس المتلقي، من خلال مفاجأة الادعاء المنبثق من التخوف، وجرأة الإخوة، وحرصهم على التخطيط المحكم. لكن فاتتهم حكمة النبوة التي يمتلكها والدهم، الذي لم تنطلِ عليه حيلتهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف: ١٨)، حيث امتلك يعقوب يقينا بأن يوسف مجتبى يعلمه الله تأويل الأحاديث ولمّا يحدث ذلك بعد، كما أنه مقضي له بسجود أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، ولمّا يحدث ذلك بعد، وسهولة اكتشاف خدعة الدم الكذب غير المحكمة، وتناقض الحال بين موقف الأبناء السابق في تأكيدهم وهم العصبة على سهولة حفظهم ليوسف وتفريطهم به اليوم ببساطة من خلال تركه منفردا عند متاعهم كما ادعوا، وقد وقعوا في لحن القول بقولهم في نهاية الآية السابقة: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، بينما كان التعبير الأقوى الذى كان يُفترض قوله هنا لولا عدم صدقهم؛ كان ذلك التعبير في مقام فقدهم لشقيق يوسف عند عزيز

وقد برز نمط آخر من الاستباق الداخلي يقوم على التهديد والوعيد المتحقق جزء منه فيما بعد، حيث قال حكاية على لسان امرأة العزيز: ﴿... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾(يوسف: ٣٢)، وقد أوحى ذلك التهديد بمدى استعصام يوسف وطهارته وإصراره على موقفه الإيماني، وقد فعلت امرأة العزيز ما أرادت لكنها لم تحقق كل ما تمنت، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾(يوسف: ٣٥)، حيث قررت ومن معها إدخاله السجن حتى حين، لكن ذلك لم يكن وفق إرادة العزيز وحسب، بل جاء وفق رغبة النبي يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلى مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾(يوسف: ٣٣)، فقد تحقق السجن، لكن الصَّغَار الذي أرادته لم يتحقق؛ بل كان سجن عزّة، وميدان دعوة، وكان الخروج منه نصرًا وفتحًا وبراءة: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾(يوسف: ٥٠).

وقد تسللت الرؤيا إلى الاستباق الداخلي أربع مرات، كانت أولاهما في رؤيا يوسف، والثانية في رؤيا الساقي، والثالثة في رؤيا الخبّاز، والرابعة في رؤيا الملك(٤). وقد جاءت تلك الرؤى لتؤدي إلى أكثر من غاية وإيحاء، فهي قد أكدت اجتباء يوسف وتأويله الأحاديث، وامتلاكه علما لا يدانيه فيه أحد، كما أنها جاءت لتوظف معطياتها في صناعة الحدث، وتطور